بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ — يجتاز العالم العربى اليوم آخر مرحلة من مراحل جهاده الدائب ، ونضاله الكادح الصابر ، فى طريق التخلص من الاحتلال وسيطرة الدخيل .

ومصر مُشْرِفَةٌ على أن تجنى ثمرات نضالها ، بعدما أروت شجرة الحرية بدماء أبطالها ، منذ الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ إلى ثورتها الأخيرة فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ بقيادة الأحرار من جيشها ، ومؤازرة الأبرار من أبنائها .

ومن حق الثورة على الأدب أن يمدها بما يُذْكيها ، ويصل حاضرها بماضيها ، فإن الشجرة تستمد غذاءها من جذورها الضاربة فى أعماق الثرى ، وتستمده أيضاً من أوراقها الخفّاقة فى الضوء والهواء .

ومن حق الأمة أيضاً على الأدب أن يوحى إليها بالثقة فى نفسها ، والاعتداد بجلال ماضيها ، والأسى مما كَرِهَها فى غمرة الاحتلال والضعف ، واليقين بالمجد الموموق فى مستقبلها المشرق .

وإذاً فلزامٌ على الأدب أن ينهض بأداء هذه الحقوق ، كما نهض بها من قبل . فلطالما تجاوب مع النهضات والثورات ، فأثر فيها وتأثر بها . فهو يسبقها بالتمهيد لها ، ويصاحبها بتوجيهها وتأييدها ، ويعْقُبها بتخليدها والإشادة بها ورسم أهداف لما بعدها . وهو إذ يضرم الثورات بناره ، ويهدى النهضات بنوره ، يأخذ منها كما يعطيها ، ويتقوى بها كما يُقوّيها .

٢ — وقد سلك أدبنا الحديث فى نهوضه بواجبه هذا مسالك شتى ، منها ما قاله فى الوطنية أمير الشعراء أحمد شوقى .

لذلك تخيرت شعره الوطنى موضوعا للدراسة ، لأن فيه رِيّاً للعطاش إلى حرية مصر وعزتها ، وهُتافاً بِعَلائها ومجدها فى غابرها ، وأنيناً من ضعفها وتخلفها فى فترة من ماضيها ، ولأنه يمجد الأبطال من رجالها ، ويُشيعُ نوراً فى طريق بُناتها والناهضين بها .

على أنى كَلِفْتُ بشعره منذ الصبا ، حينما كنا نُحَفَّظُ بعض أناشيده الوطنية ونرددها جماعات ، وحينما كنا نحفظ بعض قصائده ، ونلقيها فُرادى . ولقد كنت أطرب لها ، وأُعْجَبُ بها ، على حين أنى كنت لا أفهم منها ما فهمت بعدُ ، وكنت لا أعرف عن شوقى شيئاً مما عرفت فيما بعد . ومرت السنوات فإذا بشوقى يودع الحياة ، وإذا بى أكتب أول بحث لى فى دراسة النسيب فى شعره عقب وفاته ببضعة أسابيع ، وأنا طالب أُدْرُج فى أولى خطوات التعليم العالى .

وجدَّ بعد ذلك ماشغلنى عنه أو كاد ، من مطالب الحياة وشئون العمل . ثم اضطرنى تدريسى بالجامعة أن أفْرُغ لغير شوقى . لكن صلتى به لم تنقطع ، فقد كنت أحن إليه ، وآوى إلى جَنْبه ، لأستجم من نصب ، أو لأستجيب لهتاف النفس ، أو لأنشر مقالا فى ذكراه .

فلما قضيت للدراسات الأخرى حقها عدت إلى صاحبى شوقى ، لأصل ما انقطع ، ولأمُدّ فى أسباب الاتصال ما وسعَ الجهد ، وأسعف الزمن .

٣ — وقد اقتضتنى هذه الدراسة ألا أقف عند النصوص أشرحها وأستنبط منها ، وإنما أُنقِّبُ عما وراءها ، لأعْتَرِفَ التاريخ ، وأتعرَّف البواعث والملابسات ، وأنظر فى ضوئها إلى الشعر وإلى الشاعر .

ولهذا تحدثت عن العوامل الفعالة فى وطنيته منذ فجر الوطنية فى مصر إلى ضحاها ، ومهدت لكل رأى من آرائه ، أو دعوة من دعواته الوطنية بنبذة كاشفة من التاريخ .

واقتضتنى الدراسة أيضاً أن أدرس بعض النزعات فى الشعر الشامى والعراقى ،

وأن أعقد موازنات بين شوقى وشعراء العصر الحديث فى مصر . وأن أكثر من الموازنة بينه وبين حافظ إبراهيم بخاصة ، لأن حافظاً كان يسمى شاعر الوطنية . فمن الإنصاف لشوقى أن نقايس بينهما ، ولا سيما فى المواضع التى اتهم فيها شوقى بضعف الوطنية ، بل إن إنصاف شوقى يستدعى أن نوازن بينهما حتى فى المواضع التى لا تهمة فيها لشوقى ولا تحامل عليه .

ولم يمنعنى الإعجاب بشاعرية شوقى من أن أتحرى الحق فى كل رأى ذهبت إليه ، لأننى أعتقد أن الحقيقة أخلد من الإعجاب وأولى بالتبجيل . وأعتقد أننا لا نكتب لأنفسنا بقدر ما نكتب للقراء من المعاصرين ومن الأجيال القادمة ، فعلينا أن نتخير لهم ، وأن نبسط أمامهم الأدب والتاريخ خالصين من آثار الهوى والميل ، ومن آثار التحامل وغمط الحقائق .

ولعل من مظاهر حرصى على الإنصاف أننى لم أتعجّل الحكم لشوقى أو عليه فى رأى من آرائه ، وإنما اعْتَرَفْتُ ظروفه وبواعثه والجو العام الذى شعَر فيه ، لأحكم له أو عليه حكم الذى عاش فى جوه ورافقه فى حياته .

ولم تمنعنى رعاية الحب له من أن أُنْحِىَ عليه باللائمة فى المواضع التى يستحق فيها الملام . كما لم تمنعنى من نشر قصائده الثلاث المجهولة التى قالها فى عرابى حينما عاد من منفاه ، فقد اهتديت إليها منشورة باللواء غير منسوبة إلى شوقى ، لكنى عرفت من اللواء نفسه أنها لشوقى . وكان من الميسور أن أتغاضى عنها ؛ لأن شوقى لم ينشرها باسمه ، ثم لم يثبتها بديوانه فى طبعته الأولى والثانية ، ولم ينشرها ورثته فى الجزء الرابع الذى طبع منذ سنوات . وكان من المجاملة لشوقى ألا أبعث هذه القصائد ؛ لأنها لا تتّسِق مع وطنيته التى أُشِيدُ بها ، والأحِى دونها .

لكنى آثرت أن أنشرها إكبارا للبحث العلمى على المجاملة والهوى والإعجاب ، ورأيت من الأمانة والإنصاف أن أثبت ما كتبه مصطفى كامل بجريدة اللواء ،

وما نشرته اللواء من كلمات أخر في التعامل على البطل العائد من منفاه ، حتى لا يكون شوقي وحده حامل الوزر .

وكذلك فعلت في دراسة نزعته الإسلامية العثمانية ، وبينت أنها لا تعارض نزعته الوطنية .

وبعد :

فأرجو أن تكون هذه الدراسة الوطنية بشير خير لمصر في حاضرها الناهض ومستقبلها المجيد ؟

رجب ١٣٧٤
مارس ١٩٥٥

أحمد محمد الحوفي

obeikandl.com